كتاب الشهر

الأمير فؤاد الأطرش سارداً سيرة أخته

"قصة أسمهان"... أميرة الجبل وصوتٌ من الجنة

انها حكاية كتاب - وثيقة مهمة عن النجمة العربية الفريدة، صدر في العام 1962، ثم ضاع واختفى اثره كليا، ونسيه الجميع، حتى الباحثون واهل الاختصاص... الى ان عاد الى الضوء في بيروت في طبعة جديدة. "قصة اسمهان" سيرة لاحدى ابرز ايقونات الغناء في القرن العشرين

يندر ان ترى فنانة تشابكت في سيرتها الدسائس السياسية وعوالم الجاسوسية والمطاردات البوليسية مع حياة السهر والليل والمغنى والطرب الاصيل كما عند اسمهان (1912 ـ 1944) او امال الاطرش. هذه الشخصية الفريدة، التي عبرت سماءنا كشهاب، استطاعت في سنواتها القليلة على هذه الارض، ان تحفر اسمها بماء الذهب في الذاكرة الفنية الجمعية. كانت شخصية نادرة بصوتها واحساسها ونزقها وتناقضاتها، وتحديها اعراف المجتمع الشرقي بشكل عام، والمجتمع الدرزي بشكل خاص. استهواها الرقص على الحافة، غير عابئة بالموت الذي ناغشته مرات عدة في حياتها، اما عبر محاولاتها الفاشلة للانتحار، او عبر خروجها منتصرة من محاولات اغتيال تعرضت لها.

تلك الحياة القصيرة لكن المكثفة، كانت مادة دسمة للعديد من الكتاب والاعمال الفنية التي قدمت وجها مبتورا للاميرة. تارة صورتها كجاسوسة بريطانية، وطورا كجاسوسة فرنسية، واخرى ركزت على حياة الضياع والسهر والكحول ولعب القمار التي عاشتها... وكلنا يذكر مسلسل "اسمهان" (عرض في رمضان عام 2008) الذي ادت بطولته النجمة السورية سلاف فواخرجي، والدعاوى القضائية الكثيرة التي رفعت على صناعه بتهمة تشويه صورة الفنانة الراحلة.

في العام 1962، صدر في بيروت كتاب بعنوان "قصة اسمهان" سرعان ما نفد من السوق واختفى تماما وسقط كليا من الذاكرة. هذا الكتاب القيم، كان عبارة عن سيرة اسمهان بلسان شقيقها الاكبر فؤاد الاطرش الذي عاش مشاحنات دائمة مع اخته المتمردة. السيرة التي دونها الصحافي المصري الراحل فوميل لبيب، ارادها الاطرش انجيلا لكل من يحب اسمهان ويرغب فعلا في معرفة كل ما خص نجمته المفضلة بعيدا عن الاقاويل والاخبار الكاذبة. الكتاب الذي ضاع تقريبا، اعادته "دار الجديد" (بيروت) اخيرا الى الضوء، متيحة للقارئ فرصة التجوال في سيرة غنية واشكالية ومتطرفة في حب الحياة والفن، عاشت فوق خارطة ملتهبة ومتفجرة كانت ملعبا للقوى السياسية الكبرى التي تناوبت على تقسيمها وشرذمتها، بعدما كانت ساحة موصولة بالقطار من بيروت حتى حيفا.

جمعت اسمهان في سيرتها ذاكرتين: ذاكرة سياسية واجتماعية غطت مرحلة الحكم العثماني ثم الحربين العالميتين وتقسيم المنطقة، وذاكرة فنية طيبة عنوانها النهضة الفنية والثقافية والاصالة.

لطالما صور فؤاد الاطرش على انه الاخ المتزمت المحافظ الذي كان يقمع ميول اسمهان التحررية، فهم ـ اي عائلة الاطرش ـ اغصان "الشجرة الاصيلة" كما كان يقول، تقع على عاتقهم مسؤولية الحفاظ على "نقاء" هذه السلاسة وصون هذا الارث. هذا ما ولد مشكلات كثيرة مع اخته التي تزوجت ثلاث مرات، اثنتان منها من غير ملتها، فجلبت "العار على اهلها" وفق فؤاد. ورغم ان الاخير يحاول دوما تبرير الافعال التي اقدم عليها في حق شقيقته في الكتاب، الا ان كل قارئ سيتخذ موقفه انطلاقا من قناعاته ونظرته الضيقة او الواسعة الى الحرية والوجود وجدوى الحياة. اما الكتاب في ذاته، فيقدم لنا سيرة اسمهان منذ ولادتها على متن باخرة هاربة من تركيا الى بيروت وصولا الى وفاتها المأساوية غرقا في ترعة خلال توجهها الى رأس البر في دمياط ومعها صديقتها ورفيقة ايامها المجنونة ماري قلادة. فترة زمنية قصيرة نسبيا، الا انها مترعة بالتفاصيل السياسية والفنية والشخصية، والوجوه والاحداث والاماكن، ما يقطع النفس بحق، كأننا بهذا الكتاب يعيش القارئ اكثر من حياة ويسافر الى اكثر من منطقة جغرافية.

يورد فؤاد الاطرش في المقدمة تبريرا لاصدار الكتاب، قائلا: "اني لاحسب نفسي قادرا على فهم اسمهان، فانا اخوها، وهي اختي، نشأنا في بيت واحد، ومررنا بطفولة واحدة، كما انني انطوي في قرارة نفسي على حب الاخ تجاهها، وهو الحب الذي لا يعمى عن السيئات وان فرح بالحسنات (...) ولا اكتم القارئ انني كنت اجد في شقيقتي سيدة موهوبة، متفوقة، واوليها الاعجاب، شأني في ذلك، شأن كل من عرف مواهبها، وادرك في شخصيتها من قوة وسمو وابداع. وانا اشعر اذ اروي هذه المذكرات بالم وحسرة، فالزمان لا يجود كل يوم باسمهان".

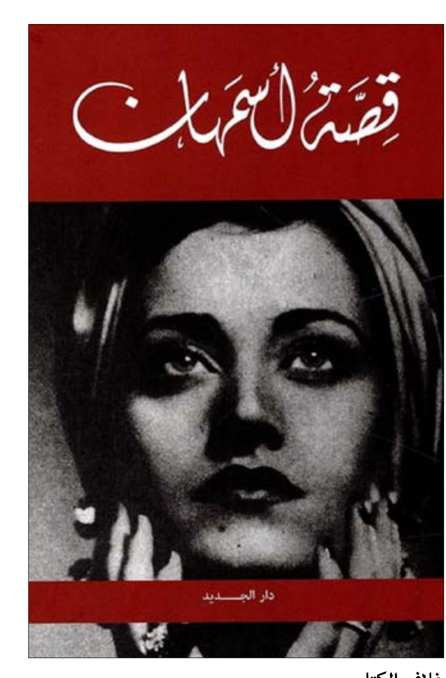
هي ابنة الامير فهد الاطرش الذي عينه السلطان عبد الحميد متصرفا على "متصرفية ديمرجي" توددا لآل الاطرش الذين كانوا يحتلون مقاعد الزعامة في جبل الدروز في السويداء. وآل الاطرش معروفون بانهم لعبوا دورا بارزا في الحياة السياسية في سوريا، فسلطان الاطرش كان قائد الثورة السورية ضد الاحتلال الفرنسي. اما امها، فهي الاميرة عالية المنذر من عائلة الجاه والنسب في لبنان. لكن الرمال السياسية المتحركة في تلك الحقبة وتبدل المعادلات والقوى النافذة في الشرق الاوسط وهزيمة الرجل التركي المريض على يد فرنسا، قلبت حياة الاسرة رأسا على عقب. انخرط الامير فهد في القتال ضد الفرنسيين مع هزيمة



الاتراك، فيما رفضت عالية ملاقاته في جبل الدروز، بل هربت باولادها فؤاد وفريد وامل (اسمهان) من حيفا الى القاهرة، تاركة الاب لمصيره ورافضة ان تعرض حياة اولادها للخطر وسط المعارك المحتدمة في جبل الدروز. بعد حياة العز والجاه والخدم والسهرات العامرة، ستجد عالية نفسها مع اولادها في شقة متواضعة في حي باب البحر الفقير والمهمش. هناك، ستبدأ حياة جديدة عنوانها شظف العيش والمعاناة وستغير كنية اولادها كي لا يتعرف احد اليهم، خصوصا ان المدرسة التي تعلموا فيها تابعة للارسالية الفرنسية. شيئا فشيئا، سيشق فريد الدرب ويعبده لاخته، اذ سيتفرغ للغناء وسيتحول البيت محجة للموسيقيين من محطات الاذاعة امثال فريد غصن وزكريا احمد وداود حسني. كان فريد اكثر قربا الى شقيقته من فؤاد بحكم شخصيتهما وطباعهما وميولهما الفنية المتشابهة. وكان يصطحبها الى السينما لمشاهدة اخر الافلام. مرة، ذهبت اسمهان مع شقيقها الى السينما وسمعت المغنية والممثلة الاميركية جانيت ماكدونالد تغني اغنية كلها آهات، فعادت الى البيت وقلدت النغمات. صودف وجود الموسيقار محمد القصبجي في المنزل. فلما سمع صوتها، علق قائلا "هذا صوت من الجنة".

بدا التحول في حياة المراهقة حين قرر الموسيقار المصري الراحل داود حسني تبني هذه الموهبة الجديدة وتغيير اسمها الى اسمهان، "فاتنة العصر وحسناء الزمان"، وسرعان ما شُرعت الابواب للمراهقة التي اعتلت منبر الاوبرا وهي في الخامسة عشرة من عمرها، وتعاقدت مع شركة "كولومبيا" لتسجيل 15 اسطوانة في مقابل عشرين جنيها للاسطوانة الواحدة، وصارت تغني مع شقيقها فريد في "صالة ماري منصور" في شارع عماد الدين الذي كان يعتبر اهم معلم فني في قاهرة ذلك الزمن.

مع صعود اسمهان الناري، كانت الخشية تزداد في قلب فؤاد الذي بات يرى الموسيقيين الرجال يدخلون المنزل، ويجالسون اخته، وهي تصعد على المسرح



غلاف الكتاب.

”
كانت الفنانة مسكونة بنبوءة العراف انها ستموت غرقًا


وتغني امام حشد مفتون بغوايتها وجمالها وسحرها. ما اثار الرعب في قلب فؤاد الذي طار الى جبل الدروز، ودبر مخططا لزواج شقيقته من الامير حسن الاطرش، خوفا من ارتباطها بشخص من خارج هذه "الشجرة الاصيلة". الغريب ان امل ستتزوج الامير حسن، ليصبح اسمها امال، وستهجر حياة الطرب والفن لتعيش معه في السويداء عاصمة الجبل وتنجب ابنتها كاميليا، وتبرهن عن قائدة حكيمة تحظى بشعبية بين رعاياها. خالت الاميرة امال انها وقعت فعلا في الحب، الا ان حياة السهر والفن والليالي الملاح عادت تعن في بالها بعد سنوات، خصوصا بعدما التقت بمدير شركة "بيضافون" في سوق الحميدية في دمشق. شيئا فشيئا ستنسحب من حياتها الجديدة لتعود الى القاهرة، وتحمل شقيقها فؤاد مسؤولية زواجها الفاشل، وتعيش الفن الذي كان يساوي الحرية بالنسبة اليها. لكن اسمهان كانت متطرفة في كل شيء. امضت ايامها ولياليها مع ندماء السهر والكأس والفن في فندق "مينا هاوس" الذي لعب دورا كبيرا في تاريخ مصر السياسي والفني، واستغرقت في عالم العبث واللهو والشرب والملذات والسخاء المتطرف وبالتالي الديون المتراكمة، مما زاد من مشاكلها مع شقيقها فؤاد الذي طردها من بيت العائلة. وعلى رغم انها تزوجت مرتين بعد الامير حسن الاطرش، الاولى من المخرج احمد بدرخان، والثانية من المذيع المصري احمد سالم، الا انها خلصت الى ان لا وجود لشيء اسمه الحب، بل ان هذا الاخير كناية عن مصالح وتبادل منافع. لقد خذلها الحب في حياتها، فيما ظل كلام العراف الذي التقته مرة، يراودها كالكابوس. اذ قال لها "سترتفعين الى القمة وتحكمين الناس (...) وستموتين في الماء وانت في ريعان الشباب". لذا، كانت اسمهان تحس بأن "رحلة العمر قصيرة".

صدقت نبوءة العراف الذي رأى اسمهان تموت غرقا، فيما ينفي اخوها في الكتاب كل الاشاعات التي تحدثت عن اغتيال "اميرة الجبل". ولنظريات الاغتيال اسس وركائز معقولة، اذ تعاونت اسمهان مع بريطانيا والحلفاء في تحرير المنطقة من قوات فيشي الفرنسية والمانيا النازية من طريق اقناع زعماء جبل الدروز بعدم التعرض لزحف الجيوش البريطانية والفرنسية الى سوريا وفلسطين عبر جبل الدروز. يلمح الكتاب ايضا الى مسؤولية ملك مصر السابق فاروق عن مقتلها، اذ يورد: "كانت اسمهان تعرف من اسرار امه حين كانت في فندق الملك داوود، الشيء الكثير". ثم يفتح القوس بشكل اكبر، ليضم اجهزة مخابرات فرنسية وانكليزية في محاولة قتلها خصوصا انها "تعرضت لمحاولة فاشلة في بيروت من قبل". في كل الاحوال، المؤكد ان اسمهان قضت في عز عطائها، و"اسدل الستار على القصة وهي في قمتها".